

الإمالة في العربية: دراسة مقارنة بين آراء النحاة القدامى وعلم الأصوات الحديث

فاطمة عبد الكريم المهدي*
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بني وليد، ليبيا

Imālah in Arabic: A Comparative Study between the Views of Ancient Grammarians and Modern Phonetics

Fatimah AbdulKarim AlMahdi*

Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Bani Waleed University, Libya

*Corresponding author

Fatimaalmaididaw@gmail.com

*المؤلف المراسل

تاريخ النشر: 2025-09-06

تاريخ القبول: 2025-08-27

تاريخ الاستلام: 2025-07-09

الملخص

تعد ظاهرة الإمالة من أبرز الظواهر الصوتية والصرفية في العربية، إذ تعكس التأثير المتبادل بين الأصوات في ضوء اختلاف اللهجات وتنوعها، كما أشار سيبويه، بينما يفسرها علم اللغة الحديث وفق مبادئ التناسب والتيسير. يهدف هذا البحث إلى دراسة ضوابط الإمالة الناشئة عن الكسرة المتقدمة على الألف عند النحاة، باعتبارها العامل الأقوى في إمالة الكلمة، وذلك من خلال منهج تحليلي يتناول معنى الإمالة وموانعها وشروطها. وقد انقسم البحث إلى مبحثين رئيسيين: الأول يتناول الإمالة لغة واصطلاحاً وأسبابها وموانعها في ضوء الدراسات الحديثة، والثاني يركز على ضوابطها بالكسرة قبل الألف ودور المماثلة الصوتية في تحققها. وخلصت الدراسة إلى أن الإمالة فرع لا أصل في النظام الصوتي للعربية، وأنها تخضع لقوانين تهدف إلى تحقيق الانسجام الصوتي وتخفيف الجهد النطقي، مع بيان الموانع كوقوع الألف قبل حروف الاستعلاء، ومناقشة آراء القدماء والمحدثين حولها، مستندة إلى مصادر في النحو والصرف والتفسير والقراءات.

الكلمات المفتاحية: الإمالة، النحاة، علم الأصوات الحديث، الكسرة قبل الألف، المماثلة.

Abstract

The phenomenon of *imāla* is considered one of the most significant phonological and morphological features in Arabic, reflecting the mutual influence between sounds as shaped by dialectal diversity, as noted by Sibawayh, while modern linguistics interprets it in terms of harmony, ease, and facilitation. This study aims to examine the rules governing *imāla* caused by a preceding kasa before an alif, regarded by grammarians as the strongest factor in triggering the phenomenon, through an analytical approach that explores its definition, conditions, and constraints. The research is structured into two main sections: the first addresses *imāla* linguistically and terminologically, along with its causes and restrictions in light of modern linguistic studies, whereas the second focuses on the rules of *imāla* due to the kasa before alif and the role of phonological assimilation in its occurrence. The study concludes that *imāla* is a secondary rather than a fundamental feature of Arabic phonology and that it operates under phonological laws designed to achieve sound harmony and reduce articulatory effort. It also discusses the restrictions of *imāla*, such as the occurrence of alif before emphatic consonants, while presenting the perspectives of both classical and modern scholars. The research draws upon a wide range of sources in grammar, morphology, exegesis, and Qur'anic readings.

Keywords: Imālah, Grammarians, Modern Phonetics, Kasa before Alif, Assimilation.

مقدمة

الحمد لله الذي من آياته اختلاف الألسن، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.
أما بعد:

تُعَدُّ اللغة العربية من اللغات التي حظيت بعناية فائقة، ليس فقط لكونها لغة القرآن الكريم، بل أيضًا لغنى علومها وتنوعها. ومن بين هذه العلوم، تبرز الدراسات الصوتية واللهجية التي تناولت طرق نطق الحروف العربية وخصائصها، مثل ظاهرة الإمالة.

الإمالة موضوع يتقاطع فيه علم اللغة مع علم القراءات، وقد حظي باهتمام كبير من النحاة والقراء على حد سواء. وعلى الرغم من اتفاقهم على ضوابطها وشروطها، إلا أن هناك خلافات جزئية في بعض القضايا النحوية، كما أن اختلاف القراءات يعود في الأساس إلى اختلاف اللهجات العربية القديمة. ومن المعروف أن القرآن الكريم نزل بلهجتين رئيسيتين هما لهجة أهل الحجاز ولهجة أهل تميم.

الإمالة في الأصل ظاهرة فرعية، أي أنها تحتاج إلى سبب لإحداثها، وقد أوضح النحاة والقراء أن سببها يرجع إلى وجود الكسرة أو الياء في الكلمة. ومع ذلك، قد تقع الإمالة أحيانًا دون وجود أحد هذين السببين، وتُعرف حينها بـ"الإمالة لأجل الإمالة".

يتناول هذا البحث دراسة الإمالة بالكسرة في ضوء الدراسات الحديثة، ولكنه سيبدأ بمبحث تمهيدي يُعرّف الإمالة عند النحاة والقراء، ويوضح أسبابها وموانعها. وسيكون المنهج التحليلي هو المسار المتبع في هذه الدراسة، التي تنقسم إلى مبحثين:

- المبحث الأول: يتناول الجانب النظري، ويشمل مطلبين:

1. المطلب الأول: تعريف الإمالة لغة واصطلاحًا.

2. المطلب الثاني: أسبابها وموانعها، مع الإشارة إلى رؤى الدراسات الحديثة.

- المبحث الثاني: يركز على الجانب التطبيقي، ويتناول شروط الإمالة قبل الألف عند النحاة، وعلاقة المماثلة الصوتية (بين الصوامت والحركات) بحدوثها، وذلك بالرجوع إلى آراء المحدثين في كتبهم المتخصصة مثل: "أصول تراثية في علم اللغة"، و"الأصوات اللغوية"، و"اللهجات في التراث".

وفي الختام، سيقدم البحث خلاصة للنتائج التي تم التوصل إليها، بالإضافة إلى قائمة بأهم المصادر والمراجع.

المبحث الأول: الإمالة: معناها وأسبابها وموانعها

المطلب الأول: التعريف بالإمالة

أولاً: معناها لغةً واصطلاحاً

تُعَدُّ ظاهرة الإمالة من الظواهر التي تُظهر تأثير الأصوات ببعضها البعض، سواء من الناحية الصوتية أو الصرفية. فالإمالة في اللغة، كما قال ابن منظور، هي مصدر "أملت الشيء إمالة"، وتعني أن تعدل به عن الوجهة التي هو فيها. ويُقال "مال يميل ميلاً" إذا انحرف عن القصد.

وفي موضع آخر، قال ابن منظور: "الميل: العدول إلى الشيء والإقبال عليه، وكذلك الميلان". وقد ورد لفظ "الميل" بمعنى العدول عن القصد، نحو قولهم: "مال عن الحق ومال عليه في الظلم".

وقال ابن فارس: "مال يميل ميلاً، والميلاء من الرمل: عقدة ضخمة تعزل وتميل ناحية، والميلاء: الشجرة كثيرة الفروع". وذكر النحاة أن أصحاب الإمالة هم تميم والحجاز وقيس وأسد، وأن محل الإمالة هي الأسماء المتمكنة والأفعال.

الإمالة في الاصطلاح:

حظيت الإمالة باهتمام كبير من النحاة والقراء وعلماء اللغة، وعرفوها بتعريفات متقاربة، أبرزها أنها "الجنح بالفتحة نحو الكسرة"، مع اختلاف نوع الحرف الممال.

فقد عرفها ابن الجزري بأنها: "أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء، وهو المحض". وعرفها القيسي بأنها: "أن تميل الفتحة نحو الكسرة، وتميل الألف نحو الياء. وإذا أملت من أجل الراء، فلا بد من إمالة ما قبلها؛ فإن كان ألفاً، فلا بد من إمالة ما قبل الألف لأن الألف لا تصل إلى إمالتها إلا بإمالة ما قبلها". وقد أفرد القيسي فصولاً للإمالة في جميع كتبه.

وقال الداني: "الإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على السنة الفصحاء". ويفهم من كلامه أن الفتح هو الأصل، وأن الإمالة فرع عنه، فهي تحتاج إلى سبب لإحداثها، وهذا ما يفسر امتناعها في بعض الكلمات.

وربما كان تعريف البادش في الإقناع الأوضح، حيث قال: "انتحاء كأنه واسطة بين الفتحة والكسرة، فتميل الألف من أجل ذلك نحو الياء ولا تستعلي كما كانت تستعلي قبل إمالتك الفتحة نحو الكسرة".

أما ابن كثير، وهو أحد القراء السبعة، فقد تميز بالفتح دون الإمالة في قراءته كلها، فلم يُمل أبداً.

من خلال عرض آراء بعض القراء في تعريف الإمالة، يتضح الآتي:

- ابن الجزري حدد نوعاً واحداً من الإمالة في تعريفه، في حين أن للإمالة أنواعاً وأسباباً متنوعة، مثل الإمالة لأجل الياء أو الإمالة لأجل الإمالة نفسها.
- القيسي حدد أن الإمالة فرع وليست أصلاً، فالأصل هو الفتح في الكلام. والإمالة ما هي إلا لغة من لغات العرب، وهو رأي قريب من رأي سيبويه.
- كان البادش الأقرب إلى توضيح المعنى الدقيق للإمالة.

أما النحاة، فقد عرفوا الإمالة بتعريفات مختلفة. قال سيبويه عنها: "باب من إمالة الألف يميلها فيه ناس من العرب كثير"، وفي موضع آخر: "ومما يميلون ألفه كل شيء كان من بنات الياء والواو مما هما فيه عين". وقد تحدث سيبويه عن الإمالة ومواضعها وتصريفاتها في مواضع كثيرة من كتابه.

وعرفها المبرد قائلاً: "وهو أن تنحو بالألف نحو الياء، ولا يكون ذلك إلا لعلة تدعو إليه... اعلم أن كل ألف زائدة أو أصلية فنصبها جائز، وليس كل ألف تمال لعلة إلا نحن ذاكرون."

أما ابن يعيش، فقد جمع في تعريفه بين المعنى اللغوي والاصطلاحي قائلاً: "اعلم أن الإمالة مصدر أملته إمالة، والميل الانحراف عن القصد... وكذلك الإمالة في العربية عدول الألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين الألف المفخمة وبين مخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفتها." وقال الزمخشري في تعريفه: "يشترك فيها الاسم والفعل، وهي أن تنحو بالألف نحو الكسرة، فتميل الألف نحو الياء ليتجانس الصوت... وسبب ذلك أن تقع بقرب الألف كسرة أو ياء، أو هي تكون منقلبة عن مكسورة أو ياء أو صائرة ياء في موضع". وهنا يحدد الزمخشري السبب الحقيقي لحدوث الإمالة وهو التعليل الصوتي الذي يهدف إلى تجانس الحروف في البنية الواحدة.

وقال السراج: "معنى الإمالة: أن تميل الألف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة."

بالتأمل في تعريفات النحاة والقراء للإمالة، يمكن استخلاص الملاحظات الآتية:

- يبدو أن سيبويه يرى أن الفتح هو الأصل، وأن الإمالة ليست إلا لهجة من لهجات العرب. ويُستدل على ذلك من تكراره لعبارة مثل: "العرب لا تميل"، مما يشير إلى أن الإمالة ليست القاعدة العامة في لغة العرب.
 - أما المبرد، فيرى أن الإمالة ظاهرة عارضة وليست مستساغة في الكلام وقواعده، وأن الفتح هو الأجدر بالاستعمال.
 - في المقابل، يرى ابن يعيش أن الإمالة تقتصر على الفتحة، إلا أنه لم يوضح أن الفتحة هي سبب الإمالة.
 - أما الزمخشري، فيتضح من كلامه أن الإمالة سببها صوتي بحت، يهدف إلى تجانس الحروف وتقاربها. وقد أكد علماء القراءات هذه الحقيقة، وهي أن الألف تتأثر بما قبلها، ولا تُوصف بالإمالة بذاتها.
 - ولكن يبقى تعريف ابن الباذش هو الأفضل، لأنه يوضح جوهر الإمالة وهو "الانحدار باللسان بدل الاستعلاء"، وهذا يحدث لسبب صوتي وهو تجانس الحروف وتخفيفها على اللسان.
- مع هذه الآراء للمتقدمين من النحاة والقراء، سار المحدثون على نفس النهج في توضيح الإمالة، مع اختلاف بسيط في المصطلحات، حيث يعبرون عن "الفتحة" بـ "الحركة القصيرة" و "الألف" بـ "الحركة الطويلة".
- يقول إبراهيم أنيس: "الفتح والإمالة: صوتان من أصوات اللين، سواء كانا قصيرين أو طويلين".

المطلب الثاني: أسباب الإمالة وموانعها

أولاً: أسبابها

تحدثنا في المطلب السابق عن معنى الإمالة، والآن سنتناول الأسباب التي تدعو لحدوثها، والتي ذكرها النحاة في مصنفاتهم. يقول ابن الجزري: "أسباب الإمالة... هي عشرة، ترجع إلى شئنين: أحدهما الكسرة، والثاني الياء، وكل منهما يكون متقدماً على محل الإمالة من الكلمة."

وفيما يلي أهم أسباب الإمالة:

- **وقوع الألف قبل الكسرة متصلة:** مثل "عابد" و "عالم". يقول سيبويه: "الألف تُمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وذلك قولك: عابد أو عالم، ومساجد... وإنما أملوها للكسرة التي بعدها، أرادوا أن يقرّبوها منها كما ترجوا في الإدغام الصاد". ويقول المبرد: "فإنما أملت الألف للكسرة اللازمة لما بعدها".
- **وقوع الألف بعد الكسرة منفصلة بحرف واحد:** مثل "كتاب" و "سلاح". يقول ابن يعيش: "وكذلك شِمْلَال تميل فتحة اللام من كسرة الشين، ولا يُعتد بالميم فاصلة لسكونها، فهي حاجز غير حصين، فصارت كأنها غير موجودة". ويقول أبو البقاء: "ومن شرطه أن يكون ما بعد الكسرة ساكناً نحو: سربال وجلياب".
- **وقوع الألف قبل كسرة عارضة عند الوصل والوقف:** وهذا يحدث بسبب التقاء الساكنين.
- **وقوع الألف بعد كسرة تعرض لأحوال الكلمة عند تصرفها:** وهذا في بعض الأفعال مثل "خاف" و "طاب"، وهي لغة لبعض أهل الحجاز، لأنهم يقولون: "خَفْتُ" و "طَبْتُ". ويرى السراج أن سبب الإمالة في هذه الأفعال يعود إلى أن الحرف الذي يسبق الألف يُكسر في حالة اتصاله بالضمائر، مثل: "طَبْتُ" و "خَفْتُ". وقد أمال القراء أفعالاً أخرى مثل: "حاق"، "صاف"، "خاب"، و "زاع"، مما يدل على حرصهم على تطبيق قواعد الإمالة.
- **وقوع الألف قبل الياء المفتوحة متصلة:** مثل "بائعته" و "سايرته".
- **وقوع الألف بعد الياء المتصلة بها من غير فاصل:** مثل "بيان" و "كيال". يقول أبو حيان: "أهل الحجاز يميلون الكسرة، فالياء تُمال الألف لأجلها إذا اتصلت متقدمة نحو: سيال وضياع وبياع، وهي في المشددة أقوى". ويضيف ابن يعيش: "والإمالة للياءين نحو "كَيَال" و "بَيَّاع" أقوى من الياء الواحدة نحو "البيان" و "شوك السَّيَال"."
- **وقوع الألف بعد الياء منفصلة بحرف واحد:** مثل "شيبان" و "عيلان". يقول ابن يعيش: "والإمالة للياء الساكنة نحو "شَيبَان" و "عَيلَان" أقوى من الإمالة للياء المتحركة من نحو "الحيوان" و "الميلان"؛ لأن الساكنة أكثر ليناً واستقلالاً، فكانت أدعى للإمالة."

- وقوع الألف ثنائية في الأسماء الثلاثية التي تصير فيها الألف ياء عند الجمع: مثل "ناب" التي جمعها "أنياب"، و"عاب" التي تعني "عيب". وقد ساعدت الإمالة في مثل هذه الأسماء والأفعال.
- وقوع الألف رابعة في الأسماء الرباعية: لأنها تنقلب ياءً في التنثنية، مثل "حُبلى" و"مِعزى". يقول ابن السراج: "وكل ألف زائدة للتنثيث أو لغيره فحكمها حكم الألف إذا كانت رابعة فصاعداً، لأنها تُقلب ياء في التنثنية... وناس كثيرون لا يميلون."
- الإمالة لأجل الياء المقدرة: يقول ابن فارس: "الإمالة إنما كانت من أجل الياء، فلما زالت الياء زالت الإمالة". ويقول مكي القيسي: "وعلى هذه العلة تجري أكثر الإمالات."
- الإمالة لأجل الإمالة (المجاورة): يقول أبو حيان: "رأيت عماداً، فأمالوا للإمالة كما أمالوا للكسرة... وقد تتقدم الإمالة على الذي أُميل لأجلها، وقد تتأخر... وهذه المجاورة جاءت فيما هو كلمة أو كالكلمة نحو مغزانا". وقد استبدل بعض المحدثين هذا المصطلح بـ"الانسجام الصوتي" أو "الانسجام الحركي"، مما يؤكد أن هذا السبب قائم بذاته لدى القدماء والمحدثين.

مظاهر القوة والضعف بالنسبة للكسرة وتأثيرها في الإمالة

يرى النحاة والقراء أن هناك تفاوتاً في تأثير الكسرة على الإمالة. وتعدّ كسرة الإعراب أقوى في تأثيرها من الكسرة العارضة، كما أن اجتماع أكثر من كسرة يكون أقوى من وجود كسرة واحدة. ويزداد التأثير قوة كلما كان الاتصال بين الكسرة والألف أقرب.

يوضح ابن يعيش هذه المعاني في "شرح المفصل" حيث يقول: "أعلم أنه كلما كثرت الكسرات كان أدعى للإمالة لقوة سببها، ومتى بعدت عن الألف ضعفت لأن للقرب من التأثير ما ليس للبعد واجتماع الأسباب حكم ليس لانفرادها. فإن الإمالة في جَلْبَلاب أقوى من إمالة شِمْلال، لأن الكسرتين أقوى من الكسرة الواحدة، وإمالة عماد أقوى من إمالة شِمْلال لقرب الكسرة من الألف، وإمالة شِمْلال أقوى من إمالة أكلت عنها لقوة الحاجز بالحركة، وإمالة أكلت عنها أقوى من إمالة دِرْهَمَان، لأن بين كسرة الدال من دِرْهَمَان وبين الألف منها ثلاثة أحرف. فلما كانت الكسرة أقرب إلى الألف، فالإمالة له ألزم، والنصب فيه جائز، وكلما كثرت الكسرات والبياءات كانت الإمالة فيه أحسن من النصب".

ويقول الرضي في "شرح الشافية": "فالحرف المتحرك إما أن يكون بينه وبين الألف حرف أو حرفان، والأول أقوى في اقتضاء الإمالة لقربها. وإذا تتابعت كسرتان كجَلْبَلاب، أو كسرة وياء نحو كيزان كان المقتضي أقوى."

- بناءً على ما تقدم، يمكن تحديد مظاهر قوة وضعف الكسرة في نقطتين أساسيتين:
- أولاً: كسرة الإعراب أقوى في الإمالة من الكسرة العارضة.
- ثانياً: توالي أكثر من كسرة له دافع أكبر في إحداث الإمالة من الكسرة الواحدة.

موانع الإمالة

لما كان الهدف من الإمالة هو تحقيق التناسب الصوتي وتسهيل النطق، فإنها تُمنع في المواضع التي لا يتحقق فيها هذا الغرض. وتُعتبر الإمالة من الظواهر الصوتية التي تهدف إلى تقليل الجهد العضلي، وهي بذلك تشبه الإبدال والإعلال والإدغام، والتي أطلق عليها المحدثون "قانون السهولة والتيسير". وقد ذكر النحاة والقراء الموانع الرئيسية للإمالة، وهي كالتالي:

1. وقوع الألف قبل الحروف المستعلية أو بعدها: يرجع هذا المنع إلى أن الصوت يستعلي عند نطق هذه الحروف إلى أعلى الحنك، بينما الإمالة تحرف الحرف إلى مخرج الياء، فيحدث تعارض بين الصوتين.
2. الأسماء المبنية: لا تُمال الأسماء المبنية في الأصل لعدم تصرفها واشتقاقها، وإنما يمال منها ما أشبه المتصرف.
3. الحروف: لا تُمال الحروف بشكل عام. يقول الزمخشري: "الحروف لا تمال نحو: حتى، وعلى، وإلى، وإما... وقد أميلت بلى."

دراسة موانع الإمالة في ضوء علم اللغة الحديث

بعد أن ذكرت أسباب وموانع الإمالة عند النحاة والقراء، سأعرض لهذه المواضع في ضوء الدراسة اللغوية الحديثة، وذلك من خلال:

1. دراسة بعض الأمثلة التي ذكرها النحاة صوتياً.
2. تحليل آراء النحاة والقراء حول أصوات الاستعلاء.
3. مناقشة آراء المحدثين حول الإمالة.

قبل الخوض في ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الدراسة الصوتية عند العرب بدأت مبكراً، حيث كان لكبار العلماء إسهامات مهمة، مثل: أبو الفتح ابن جني في كتابه "سر صناعة الإعراب"، وابن سينا في رسالته "أسباب حدوث الحرف"، وكذلك مكي بن أبي طالب القيسي الذي توسع في معالجة الأصوات من حيث القوة والضعف والمخارج والصفات.

القضية الأولى: التغير الصوتي للأمثلة

لفهم هذه القضية، يجب توضيح طبيعة أصوات الاستعلاء. يرى المحدثون أن أصوات الاستعلاء هي التي يرتفع فيها مؤخر اللسان إلى أعلى، في اتجاه الطبق اللين. ويشير الدكتور عبد الصبور شاهين إلى أن هذا الارتفاع يجعل الصوت يخرج غليظاً ومفحماً، لكن هذا التفخيم قد يضعف إذا لحقته حركة أمامية مثل الكسرة.

في المقابل، يكون وضع اللسان مع الحركات كالتالي:

- **الفتحة (-):** يكون اللسان مستويًا في قاع الفم.
- **الكسرة (-):** يرتفع مقدم اللسان نحو الحنك الأعلى.
- **الضمة (-):** يرتفع مؤخر اللسان.

وبناءً على هذه الحقائق، يمكن تفسير عدم حدوث الإمالة مع أصوات الاستعلاء على النحو التالي:

- **امتناع الإمالة إذا سبقت الألف بحرف استعلاء:** مثل كلمة "صالح". في هذه الكلمة، يكون لدينا صعود من الخلف (مع الصاد)، ثم استواء (مع الألف)، ثم صعود من الأمام (مع الكسرة). هذا التتابع في حركة اللسان يجعل الإمالة غير ممكنة، لأن اللسان يحتفظ بتوازنه.
- **حدوث الإمالة إذا كان حرف الاستعلاء مكسورًا:** مثل "قباذ". في هذه الحالة، يحدث صعود من الخلف (مع القاف)، ثم صعود من الأمام (مع الكسرة)، ثم استواء (مع الألف). هذا التداخل بين حركتي اللسان يجعل الإمالة ممكنة.
- **امتناع الإمالة إذا جاء حرف الاستعلاء بعد الألف:** مثل "عاصم" و"نافع". في كلمة "عاصم"، يكون لدينا استواء (مع الألف) يليه صعود خلفي (مع الصاد) ثم صعود أمامي (مع الكسرة). وفي "نافع"، يكون لدينا استواء يليه صعود أمامي (مع الفاء) وخلفي (مع العين)، وهذا التباين في حركة اللسان يمنع الإمالة.

القضية الثانية: التسفل والاستعلاء

استخدم القدماء مصطلحي الاستعلاء (لأصوات الاستعلاء) والتسفل (للإمالة والكسرة). ويُفهم من كلام ابن الأنباري أن التسفل نقيض الاستعلاء، وأن حروف الاستعلاء تمنع الألف من التسفل. ويرى المحدثون أن هذا هو التعليل الصوتي الذي يسمى "التماثل"، حيث إن الأصوات المتضادة في المخرج أو الصفة لا تتجانس بسهولة. وقد عرّف الدكتور عبد الصبور شاهين التسفل بأنه "وضع اللسان يكون فيه أسفل في مقام الضم، وذلك في بقية الأصوات المرفقة".

القضية الثالثة: الإمالة في ضوء علم اللغة الحديث

أبدع النحاة والقراء في تحليل أسباب وموانع الإمالة، بينما كانت آراء المحدثين في هذا المجال أقل تفصيلاً، لكنها أكدت نفس المفاهيم بأسماء مختلفة. فقد أطلق بعضهم على موانع الإمالة "مضعفات المقتضى للإمالة". ويرى بعض المحدثين، مثل الدكتور رمضان عبد التواب، أن الإمالة هي مرحلة سابقة على الفتح، وأن سببها هو "قانون السهولة والتيسير"، وهو نفس ما أشار إليه النحاة القدامى من أن الإمالة جاءت لتقليل الجهد العضلي.

وخلاصة القول أن آراء القدماء والمحدثين تتفق في جوهرها على أن الإمالة هي ظاهرة صوتية، وأن موانعها ترجع في الأساس إلى تعارض الحركات أو صفات الحروف التي تمنع الانسجام الصوتي وتتطلب جهداً عضلياً إضافياً.

المبحث الثاني: ضوابط الإمالة بالكسرة قبل الألف

بعد أن عرضنا لمعنى الإمالة وأسبابها وموانعها في ضوء الدراسات الحديثة، ننتقل إلى أهم ضوابطها، والتي كانت سبباً لاختيار هذا الموضوع.

المطلب الأول: إذا كان الفاصل بين الكسرة والألف حرفاً واحداً

يشترط النحاة لإمالة الألف وجود كسرة تسبقها، وقد يفصل بين هذه الكسرة والألف بحرف واحد أو أكثر. وفي هذا المبحث، سنوضح هذه الشروط وآراء النحاة حول علاقة الكسرة بحدوث الإمالة. يقول مكي القيسي: "اعلم أن العلل التي توجب الإمالة ثلاث: وهي الكسرة، وما أميل ليدل على أصله، والإمالة لأجل الإمالة".

أولاً: إذا كان الفاصل بين الكسرة والألف حرفاً واحداً

يشترط النحاة لإمالة الألف أن يكون بين أول حرف من الكلمة والألف حرف متحرك، والأول مكسور. يقول الزجاج: "فإذا كان بين أول الحرف من الكلمة وبين الألف حرف متحرك والأول مكسور أمّلت الألف". ويعلل أبو حيان ذلك بقوله: "فالإمالة وإن تأخرت الألف بحرف نحو: عماد، أو حرفين أولهما ساكن نحو: شمال أميل... وكما كانت الكسرة أقرب إلى الألف كانت الإمالة أولى، فكتاب أولى من جلباب، وكما كثرت الكسرات كانت الإمالة أولى".

ويقول السيوطي: "فأما الإمالة لأجل الكسرة السابقة فشرطها أن يكون الفاصل بينهما وبين الألف حرفاً واحداً نحو: كتاب وحساب".

وقد أوجب النحاة الإمالة في كلمات مثل: عماد، وكتاب، وحساب، وشمال، وجلباب لموافقتها لشروط الإمالة. وقد أمال القراء بعض هذه الكلمات، مثل "ضعاف" في قراءة حمزة، حيث وجه إمالتها إلى كسرة الضاد. وقد علّل أبو البقاء إمالة بعض الأفعال مثل خافوا، بأن الكسر قد يعرض في بعض الحالات، وذلك عند إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم أو المخاطب، مثل "خُفْتُ" و"خُفْنَا".

ويوضح الرازي أن ما كان على وزن ضِعَاف، وغِلَاب، وخِباب يُحسن فيه الإمالة. ويقول مكي القيسي: "ومن ذلك إمالة حمزة والكسائي 'أو كلاهما' أمالاه للكسرة التي على الكاف، ولم يُعَد باللام، لأن الحرف الواحد لا يمنع ولا يحجز". وهذا يظهر قيمة الإمالة عند القراء في تحقيق التناسب الصوتي وتجانس الحروف.

المطلب الثاني: إذا كان الفاصل بين الكسرة والألف حرفين

تحدث النحاة عن هذا الضابط في الإمالة وأسبابها. يقول سيبويه: "وكذلك إن كان بينه وبين الألف حرفان الأول ساكن، لأن الحرف الساكن ليس بحاجز قوي، وإنما يرفع لسانه عن الحرف المتحرك دفعة واحدة كما دفعه في الأول فلم يتفاوت لهذا كما لم يتفاوت الحرفان... وذلك قولهم: سربال وشملال وعماد وكلاب." ويؤكد أبو حيان هذا المعنى بقوله: "فالإمالة وإن تأخرت الألف بحرف نحو: عماد، أو حرفين أولهما ساكن نحو: شملال، أميل."

ويشرح ابن يعيش قول سيبويه قائلًا: "وكذلك شملال تميل فتحة اللام منه لكسرة الشين، ولا يُعتد بالميم فاصلة لسكونها، فهو حاجز غير حصين، فصارت كأنها غير موجودة." أغلب النحاة يذهبون مذهب سيبويه في هذا الشرط، ويعتبرون الحرف الساكن حاجزًا غير قوي، وهذا ما يفسر عدم اختلاف القراء عن النحاة في هذا الشرط.

خلاف حول إمالة "المحراب"

تُعد كلمة المحراب من المواضع التي أثارت خلًا في القراءات. فقد تفرد ابن ذكوان بإمالة "المحراب" في سورة آل عمران ومريم، على الرغم من أن أغلب القراء فتحوا الراء.

وقد علل مكي القيسي ضعف هذه الإمالة بوجهين:

- الأول: أن حرف الراء إذا انفتح قبل الألف يمنع الإمالة.
 - الثاني: أن الكسرة هنا عارضة وغير لازمة. ومع ذلك، يرى مكي أن إمالة "المحراب" تتقوى قليلاً بوجود كسرة على الميم وكسرة على الياء في الكلمة، وهما سببان يوجبان الإمالة، واجتماعهما يقويها.
- أما حجة سيبويه في جواز إمالة الألف في "محراب" فكانت أن العرب قالوا "عمران" ولم يميلوا "بُرقان"، مما يدل على أنهم لم يعتبروا الراء كحرف مستعلٍ يمنع الإمالة، وعلى هذا يجوز إمالة الألف في "محراب".
- كما أمال القراء كلمات أخرى مثل: مشكاة ومِرْجاة، ووجه إمالتهما هو الكسرة التي بعد الميم، كما أمالت العرب "شملال". ويؤكد السمين الحلبي أن الدوري عن الكسائي أمال "المشكاة" لتقدم الكسرة، على الرغم من وجود فاصل.

المطلب الثالث: إذا كان الفصل بثلاثة أحرف بين الكسرة والألف أو كان أحدها "هاء"

قبل الخوض في هذا الشرط، يجب توضيح ما يراه النحاة حول صوت "الهاء". يرى مكي القيسي أن الهاء من "الحروف الخفية"، لأنها تخفى في اللفظ عند إدراجها بين الحروف. ويقول الخليل بن أحمد عن الهاء: "إنها مهموسة خفية لا صوت لها."

لهذا السبب، اعتبر النحاة الهاء كالمعدومة، فلم تُعد حاجزًا قويًا يمنع الإمالة بين الكسرة والألف. وذكروا أمثلة على ذلك: "يريد أن يضربها"، و"يريد أن ينزعها".

يقول ابن السراج: "اعلم أن ناسًا من العرب يُلغون الهاء إذا اعترضت بين الذي يميل الألف وبين الألف لخفائها ولا يعتدون بها". وذكر بعض النحاة أن الإمالة مع الكسرة ووجود الهاء والساكن تكون شاذة. هذا يعني أن إمالة "هؤلاء عندها" تُعد شاذة لوقوع ثلاثة أحرف بين الألف والكسرة، أحدها ساكن والثاني هاء.

الإمالة في الوصل والوقف

يُشترط في الإمالة مع الهاء، إذا كان بينها وبين الألف حرفان أو أكثر، أن تكون في حالة الوقف وليس الوصل. يوضح أبو علي الفارسي ذلك بقوله: "وقد فصلوا بين الوصل والوقف، فأمالوا إذا وقفوا، ولم يميلوا إذا وصلوا... وذلك قولهم في الوقف: يُريد أن يضربها، ومِنَّا، ومِنها، وبِنَا، فإذا وصلوا نصبوا فقالوا: يُريد أن يضربها زيد."

والخلاصة هي أنهم أرادوا بيان الألف في الوقف بالإمالة، بينما في الوصل يعود اللفظ إلى أصله.

مواضع أخرى للإمالة

يشترط النحاة في الإمالة مع الهاء ووجود فاصل بحرفين أو أكثر ألا تكون إحدى الحركتين ضمة، فلا تجوز إمالة "هو يضربها"؛ لأن الضمة حاجز بين الكسرة والألف.

كما أن الإمالة في وسط الكلمة لها نفس حكم الإمالة في أولها من حيث القوة والضعف. يقول أبو حيان: "وحكم الكسرة في وسط الاسم حكمها في أوله، فالإسوداد مثل عماد، وكلما كانت الكسرة أقرب إلى الألف كانت الإمالة أولى."

ويقول سيبويه: "فتميل الألف ها هنا من وَدَاد وأمالها في الفعل؛ لأن وداد بمنزلة كلاب."

الخاتمة

1. تُعد ظاهرة الإمالة حلقة وصل إيجابية بين الدرسين الصوتي والصرفي، فهي تحمل جوانب صوتية لا يمكن إغفالها، فالتعبير الذي يطرأ على البنية الصرفية هو نتيجة لجملة من الأسباب الصوتية.
2. لقد نجح جمهور القراء في تفسير وتعليل الإمالة بشكل أكثر وضوحًا من النحاة، وقد ظهر ذلك جليًا في آراء ابن الباذش.
3. إن التفسير الصحيح لحدوث الإمالة هو التعليل الصوتي، فهي تعبير عن حالات التأثير والتأثر بين الأصوات.
4. أكد النحاة من خلال أقوالهم أن الإمالة فرع وليست أصلًا، وأنها جزء من لهجات العرب. وهذا يتضح في كتاب سيبويه بعبارات مثل: "والعرب تميل" و"أمال بعض العرب". كما أكد المبرد هذا المعنى بقوله: "وليست كل ألف تُمال لعل إلا ونحن ذاكرون"، وتبعه مكي القيسي الذي أكد أن الفتح هو الأصل.

5. تُعد المماثلة بمفهوم المحدثين من أهم أسباب حدوث الإمالة، حيث ذكر النحاة أن بعض الكلمات أميلت من أجل التناسب والسهولة والتيسير، وهو ما يُعزى إلى القوانين الصوتية الحديثة التي تهدف إلى إحداث التقارب في الصيغة أو المخرج، ويُسمى هذا عند المحدثين "التحول الداخلي" تحقيقاً للانسجام الصوتي.
6. يركز رجوع الإمالة إلى قانون المماثلة على وجود الكسرة، سواء كانت سابقة للألف أو متأخرة عنها.
7. يرى بعض النحاة أن الكسرة المتقدمة على الألف يكون تأثيرها أقوى في الإمالة من المتأخرة؛ لأن تقدمها يُحدث صعوداً بالكسرة ثم تسفلاً بالألف، مما يجعلها أدعى للإمالة.
8. الإمالة في الكسرة المتقدمة على الألف تشمل:
 - إذا كان بينهما وبين الألف حرف متحرك، مثل: عمّاد، وكَلاب.
 - إذا كان بينهما وبين الألف حرفان، أولهما ساكن، لأن الساكن ليس بحاجز قوي، مثل: شِمْلال.
 - إذا كان بينهما وبين الألف ثلاثة أحرف، وأحدها هو الهاء، مثل: يضرِبها. وقد أجمع النحاة على أن الهاء صوت خفي له تأثير كبير في حدوث الإمالة.
 - منع أغلب النحاة والقراء الإمالة عند الوصل مع الهاء وأجازوها عند الوقف، لأن الألف في الوصل أبين منها في الوقف.
9. أمال بعض القراء كلمات قرآنية بعينها، مثل: بضعافاً، ومشكاة، ومرجاة، وكلاهما. وكل هذه الأمثلة تعود إلى أسباب صوتية، فالحاجز بين الكسرة والألف قد يكون حرفاً متحركاً، أو حرفين أحدهما ساكن، أو الهاء، أو ثلاثة أحرف مثلما في "دِرْهَمَان".

موانع الإمالة

1. أصوات الاستعلاء والراء تمنع الإمالة، لأنها أصوات تستعلي إلى الحنك الأعلى.
2. يختلف مفهوم "التسفل" الذي استخدمه علماء اللغة القدامى عن المفهوم الحديث، فالقدماء اعتبروا التسفل هو الإمالة، بينما المحدثون مثل الدكتور عبد الصبور شاهين ورمضان عبد التواب يرون أن التسفل هو نقيض الاستعلاء.
3. علل علماء اللغة أن الإمالة في الفعل أقوى، لأنه أكثر تصرفاً.
4. مفهوم الاستعلاء يختلف عن الاستفال عند القدماء، فالاستفال هو الإمالة. أما عند المحدثين، فإن الاستفال هو الاستعلاء.

المصادر والمراجع:

1. ابن الباذش، أحمد بن علي. (د.ت.). *الإقناع في القراءات السبع*. دار الصحابة للتراث.
2. ابن السراج، محمد بن السري. (د.ت.). *الأصول في النحو* (تحقيق: عبدالحسين الفتلي). مؤسسة الرسالة.
3. ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبدالله. (د.ت.). *أسباب حدوث الحروف*.
4. ابن عقيل، عبدالله. (1974). *شرح ابن عقيل* (تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط16). دار الفكر.
5. ابن فارس، أحمد بن فارس. (1979). *معجم مقاييس اللغة* (تحقيق: عبدالسلام هارون). دار الفكر.
6. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت.). *الخصائص* (تحقيق: محمد علي النجار). دار الهدى للطباعة.
7. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (2000). *سر صناعة الإعراب*. دار الكتب العلمية.
8. ابن خالويه، الحسين بن أحمد. (د.ت.). *إعراب القراءات السبع وعللها* (تحقيق: عبدالرحمن العثيمين). مكتبة الخانجي للنشر.
9. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (د.ت.). *لسان العرب*. دار صادر.
10. ابن يعيش، موفق الدين يحيى. (2001). *شرح المفصل لابن يعيش* (تحقيق: إميل يعقوب، ط1). دار الكتب العلمية.
11. أنيس، إبراهيم. (1973). *في اللهجات العربية* (ط4). مكتبة الانجلو المصرية.
12. الأنطاكي، محمد. (د.ت.). *المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها* (ط3). دار الشرق العربي.
13. الأنصاري، أبو علي الفارسي. (1993). *الحجة للقراء السبعة* (تحقيق: بدر الدين قهوجي و بشير جويجاني، مراجعة: عبدالعزيز رباح و أحمد يوسف الدقاق، ط2). دار المأمون للتراث.
14. الأزهرى، خالد بن عبدالله. (د.ت.). *شرح التصريح على التوضيح* (وبهامشه حاشية الشيخ يس العليمي). دار إحياء الكتب العربية.
15. الأشموني، علي بن محمد. (1955). *منهج السالك إلى ألفية ابن مالك* (تحقيق: محمد محي الدين). دار الكتاب العربي.
16. السامرائي، إبراهيم. (1961). *دراسات في اللغة*. مطبعة العناني.
17. الدمشقي، أبو شامة. (د.ت.). *إبراز المعاني من حزر الأمانى*. دار الكتب العلمية.
18. الزمخشري، محمود بن عمر. (1993). *المفصل في صناعة الإعراب* (تحقيق: علي بو ملح، ط1). مكتبة الهلال.
19. الراجحي، عبده. (د.ت.). *التطبيق الصرفي*. دار المسيرة للنشر.
20. الرضي، محمد بن الحسين. (د.ت.). *شرح شافية ابن الحاجب* (تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محي الدين عبد الحميد). مطبعة حجازي.

21. القيسي، مكي بن أبي طالب. (1998). *الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها* (تحقيق: الدين رمضان، ط5). مؤسسة الرسالة.
22. القيسي، مكي بن أبي طالب. (1996). *الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة* (تحقيق: حسن فرحات، ط3). دار عمار.
23. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. (د.ت.). *معجم الهوامع في شرح جمع الجوامع* (تحقيق: عبد المجيد هندراوي). المكتبة التوقيعية.
24. العكبري، عبدالله بن الحسين. (1995). *اللباب في علل البناء والإعراب* (تحقيق: دار الفكر، ط1). دمشق.
25. عمر، أحمد مختار. (د.ت.). *دراسة الصوت اللغوي*. عالم الكتب.
26. فليش، هنري. (1966). *العربية الفصحى: نحو بناء لغوي جديد* (تعريب: عبدالصبور شاهين، ط1). المطبعة الكاثوليكية.
27. الميرد، محمد بن يزيد. (د.ت.). *المقتضب* (تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة). القاهرة.
28. شلبي، عبدالفتاح إسماعيل. (د.ت.). *الإبانة عن معاني القراءات*. دار نهضة مصر للطبع والنشر.
29. عبدالنواب، رمضان. (1997). *المدخل لعلم اللغة ومناهج البحث اللغوي* (ط3).
30. عبدالباقي، ضاحي. (1985). *لغة تميم: دراسة تاريخية وصفية*. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
31. عطية، عبدالحق. (د.ت.). *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز* (تحقيق: الرحالي الفاروق عبدالله).
32. مالبرج، برتيل. (د.ت.). *علم الأصوات* (تعريب: عبدالصبور شاهين). مكتبة الشباب.